محنة الثقافة والمثقف في موريتانيا

16-5-2003

محنة الثقافة والمثقف في موريتانيا لا تعدو كونها تجليا واحدا من تجليات أزمة النظام السياسي الحاكم الذي فقد صلته بالأصالة والتراث – مع أن رجليه مازالتا راسختين في أعماق البداوة - ولم يستطع اقتحام عصر التقنية والتكيف مع مقتضيات إقامة دولة مدنية نامية،

بقلم محمد المهدي ولد محمد البشير

مواد ذات علاقة

خلفيات اعتقال الإسلاميين في موريتانيا

إنه لمن الغريب أن تتحول بلاد شنقيط التي كانت قبلة لطلاب العلم ومحجة للعلماء، وبلغ من عشق أهلها للعلم أنهم اتخذوا ظهور العيس - وهي تجوب بهم القفار- مدارس وجعلوا من الخيام كليات متنقلة إلى مقبرة للعلم والمواهب وسجن كبير للثقافة والمثقفين، وهذا التحول في اهتمام الموريتانيين بالعلم إكرامهم للعلماء الموريتانية لم يأت من فراغ وإنما هو ثمرة عداء ساسة البلد للثقافة الملتزمة بالقيم الإسلامية النبيلة والدفاع عن هوية الأمة
الحضارية ومصالحها العليا ورفض الاستبداد وفساد الإدارة ومعارضة المستبدين والمرتشين مما جعلهم لا يرون حرجا في معاقبة العلماء والمثقفين بالسجن تارة وبالإقصاء والتهميش والمضايقة تارات أخرى، وهو ما يشي بأن أجهزة النظام الحاكم وبطانته تكره الثقافة الجادة وتمقت المثقفين الأحرار لأنها تتوجس منهم خيفة وتراهن على زمرة ممن خانوا الثقافة ومن لا ثقافة لهم أصلا، وإنما هم سماسرة برعوا في بيع القيم والمبادئ والمتاجرة بالوطن والدين طمعا في تحقيق مآرب دنيوية رخيصة وأطماع شخصية زهيدة على حساب مصلحة البلاد وأمن العباد بينما.

لا يجد المثقفون الموريتانيون الراسخون في تخصصاتهم الأوفياء لمبادئهم وقيمهم الحريصون على خدمة دينهم ووطنهم أي رعاية أو تشجيع بل يوضعون أمام خيارين لا ثالث لهما : فإما أن يبقوا في موريتانيا يقاسون شظف المعيشة ومرارة التهميش والإقصاء والتهديد بمصادرة حرياتهم والزج بهم في غياهب السجون، أو أن يهاجروا. إلى بلاد الغربة حيث الحرية والديمقراطية والعيش الكريم وفرص الإبداع . لقد أضاعت موريتانيا الكثير من خيرة أبنائها فمنهم من قضى نحبه ومنهم من ينتظر، من أمثال الدكتور جمال ولد الحسن رحمه الله تعالى الشيخ العلامة عبد الله بن بي والدكتور الروائي الفيلسوف موسى ولد أبن والدكتور السيد ولد أباه وغيرهم كثير، وها هي اليوم تزيد إلى صفحتها السوداء في اضطهاد المثقفين والاستخفاف بالثقافة صفحة أشد قتامة واسودادا باعتقالها للعلامة المحدث الشيخ محمد الحسن بن الددو أبر أبناء موريتانيا وأغزرهم علما والأستاذ المفكر محمد جميل بن منصور الذي ما فتئت إدارة الأمن تلاحقه منذ سطع نجمه في سماء موريتانيا الملبد بالجهل والظلم والاستبداد مع كوكبة من إخوانهم الطيبين .
إن محنة الثقافة والمثقف في موريتانيا متشعبة الأبعاد متعددة الأوجه بدءا من إدماج وزارة الثقافة مع التوجيه الإسلامية ظلما للثقافة وإهانة للإسلام، ومرورا بإسناد هذه الوزارة لأشخاص ليس لهم من الثقافة إلا ربطة العنق، وانتهاء بالغياب التام لموريتانيا عن المحافل الثقافية عربيا ودوليا لتغييب المثقفين أولا، ولغياب رؤية ثقافية تقوم على استراتيجية سليمة لإنتاج الثقافة وتشجيع المبدعين بدل ترويعهم، ثم توفير لقمة العيش الكريمة للمواطن الموريتاني، لأن الجائع لا يجد وقتا للقراءة والتعلم ولا للكتابة والإبداع، فهمه الأوحد الحصول على ما يسكت به الجوع عنه، أما التفاعل الإيجابي مع الثقافة وما يزخر به هذا العصر من علم ومعرفة فهو حكر على أبناء الأمم التي تقدس الثقافة وأهلها وتباهي بمن أنجبتهم من علماء ومثقفين وفلاسفة ومبدعين لأنها تعتبرهم درعها الواقي في خضم الصراع الفكري والحضاري وفرسانها الذين بهم تصول وتجول في ساح العلم والمعرفة وتضع الخطط الناجحة وترسم الاستراتيجيات الدقيقة لامتلاك ناصية الحاضر والتحكم في المستقبل فبهم تبسط هيمنتها وتفرض قيمها ومبادئها وتحمي هويتها وتاريخها من الاندثار وتستلحق شعوبا وأمما لا مكانة فيها للعلم والثقافة ولا وزن للمثقفين والعلماء.
محنة الثقافة والمثقف في موريتانيا لا تعدو كونها تجليا واحدا من تجليات أزمة النظام السياسي الحاكم الذي فقد صلته بالأصالة والتراث – مع أن رجليه مازالتا راسختين في أعماق البداوة - ولم يستطع اقتحام عصر الحداثة أو التكيف مع مقتضيات إقامة دولة مدنية نامية، ويمكن رصد أهم أسباب هذه المحنة الثقافية في النقاط التالية :

- فشل السياسة التربوية لإفلاس المناهج التعليمية المتبعة وافتقارها إلى تخطيط استراتيجي محكم وتنفيذ دقيق يتماشى مع متطلبات العصر ومستجداته.

- افتقارها للعنصر البشري المؤهل لتجسيد هذه الاستراتيجيات على أرض الواقع.

- إصرار المؤسسات الثقافية الرسمية على اعتماد معيار الولاء للنظام والانتماء للحزب الحاكم أساسا للتوظيف بدلا من معيار الكفاءة العلمية والمهنية؛ مما جعل هذه المؤسسات ترزح تحت إدارة أشخاص ليست لهم مؤهلات للإطلاع بمثل هذه المهمة النبيلة.

- ربط التوظيف - بشكل عام - بعدم المضايقة بالولاء للنظام مما أمات مواهب الإبداع لدى كثير ممن لديهم قابلية النبوغ والتفوق لأنهم توقفوا عن محاولة الكتابة والإبداع خوفا على مستقبلهم ومستقبل أبنائهم وذويهمز

- عدم الاستفادة من العلاقات الخارجية مع بعض الدول الرائدة في مجال الثقافة لإرساء مؤسسات ثقافية وعلمية قادرة على أن تكون مركزا للإشعاع الثقافي والعلمي في موريتانيا.

- فشل سياسة محو الأمية في القضاء على الجهل وتحول الوزارة المكلفة بهذه المهمة إلى مأوى للبطالة المقنعة والراغبين في الاستفادة من التفريغ قصد التفرغ لممارسة التجارة والمهن الحرة مع ضمان استمرار رواتبهم الشهرية.

- إسناد وظائف سامية في الدولة لأشخاص لا يمتلكون من المؤهلات سوى كونهم شيوخ قبائل أو من المنتمين للحزب الحاكم، وخير شاهد على هذه الحقيقة التي لايماري فيها إلا مماحك البرلمان الموريتاني بغرفتيه.

- انقلاب موازين القيم في المجتمع الموريتاني - بسبب هذه السياسات - حيث أصبح العلم مجرد وسيلة للحصول على وظيفة تضمن لصاحبها حياة مستقرة وصار الثراء ولو من خلال الطرق غير المشروعة يحدد مكانة الفردفي المجتمع و يبوءه منزلة هامة عند النظام مما زهد أغلب الناس في العلم والمعرفة.

- اتساع الفجوة بين مثقفي سلطة النظام الذين يسكنون في قصور شامخة ويعبثون بثروات الأمة دون حسيب أو رقيب وبين أغلبية الشعب التي تعاني آلام الفقر وتصارع المرض والجوع.

- بنية العقل الموريتاني الذي يركن بطبيعته البدوية إلى الثقافة الشفهية الجاهزة بينما تستعصي عليه القراءة المتأنية الجادة والبحث العلمي الرصين لما يستغرقانه من وقت ويتطلبانه من جهد.

- الغياب شبه التام للإعلام الوطني وعدم استغلال الموجود منه في ترسيخ الثقافة وفتحها أمام المثقفين بدل السعي الحثيث لتكريس فكرة الرجل الواحد والحزب الواحد وتركيز الجهود على ممارسة الإرهاب الإعلامي بإلصاق التهم – ظلما وزورا - بالمثقفين المعارضين لسياسة النظام الحاكم مع التزامهم بقوانين الجمهورية، مما يدل على أن الإعلام الوطني ليس ملكا للأمة وإنما هو أداة طيعة في يد النظام الحاكم يستعملها في حروبه ومعاركه مع أبناء بلده ، وقد كان لهذه المحنة الثقافية أثر فادح في ازدياد تخلف البلاد وعزلتها الثقافية والعلمية ونتج عنها.

- هجرة كثير من العقول والأدمغة الموريتانية خارج البلاد .

- عجز الدولة الموريتانية عن سد الثغرة التي خلفها أفول نجم شنقيط إذ لم تنجب المدرسة الموريتانية علماء أومفكرين ولا أدباء أو مبدعين يمكن أن تباهي بهم الأمم في المحافل العلمية والثقافية كما هو دأبها في المفاخرة بمن تخرجوا في المحاضر الشنقيطية في القرنين الثالث عشر والرابع عشر الهجريين.

- انعدام الدراسات العلمية والبحوث الأكاديمية والأعمال الإبداعية التي من شأنها أن تساهم في نهضة البلاد من التخلف وانتشال الثقافة من الركود والتعريف بموريتانيا خارج حدودها.

- اهتزاز ثقة الموريتانيين بهويتهم الحضارية وأخلاقهم الإسلامية وعاداتهم العربية والإفريقية بدءا بتغيير أسماء الأشخاص والمدن وانتهاء بالردة عن الإسلام واعتناق النصرانية.

تفشي كثير من الآفات الاجتماعية التي لم يعرفها المجتمع من قبل كالجريمة المنظمة والقتل والاتجار بالعرض وغيرها . وما كانت موريتانيا لتمنى بهذا الكساد الثقافي الفظيع والهزيمة الحضارية النكراء في مجال العلم والمعرفة لولا محنة المثقف الموريتاني وإفلاس مؤسسات النظام الحاكم الثقافية وفشل سياساتها التعليمية وتغاضيها المستمر عن سماع صوت المثقفين الأحرار وركونها الدائم إلى إطراء المنافقين ومدح المتزلفين الذين ما فتئوا يجترون الشعارات الجوفاء التي تمجد الذات ويتغنون بما حققته البلاد من رقي وهمي وازدهار كاذب لا وجود له إلا في أذهانهم الكليلة حتى يضمنوا لأنفسهم الحظوة لدى أصحاب السلطة، إن السقيم الذي لا يفرق بين المرض والصحة لن يجشم نفسه عناء شرب الدواء والأمة التي ترفض قبول النقد البناء الصادر من أهل الاختصاص

المخلصين، لن تخرج من سيء إلا إلى أسوء، ولن ينتشل بلادا غارقة في دركات التخلف إلا الجد والصدق وتحمل التضحيات الجسام وتبني ثورة إصلاحية شاملة في جميع مناح الحياة وخصوصا في المناهج التعليمية والسياسات التربوية
والثقافية، وإعطاء مزيد من الحرية للمثقفين وترك القنوات والمنابر مفتوحة أمامهم ليؤدو رسالتهم الحضارية، أما الأمة التي تسجن علماءها ومفكريها وتهمش كتابها ومبدعيها وتحتفي بالأراذل السفلة فإنها أمة مفلسة في الدنيا لا مستقبل لها ولا مكان بين شعوب القرن الواحد والعشرين وسيضمحل كيانها بعد أن تنمحي هويتها أمام الحضارات والثقافات الوافدة وتخرج من التاريخ مذؤومة مدحورة.